بائعة الشهد

كانت تجهش بالبكاء داخل حجرتها.. في الخارج تسمَّر والداها من فرط الدهشة.. تبادلا نظرة استغراب وتساؤل:

- أهذه سناء؟! أهي التي تبكي؟!!

لم يذكر أحدهما أنه رآها أو سمعها تبكي.. كانت تتحكم في دموعها.. تُحجّرها في مآقيها بإرادتها.. في طفولتها، كانت تطلق لها العنان.. لتحقق رغبتها فحسب.. دومًا متحدية عنيدة.. ولكن الأمر يختلف.. السبب المباشر في طي المجهول.. الأب المحزون يحدج الأم بنظرات حانقة تحمل المرارة واللوم.. الأم زائغة العينين.. لا تحتمل لهيب النظرات اللاسع.. ولولا خجلها لبكت تحت قدمَي زوجها متوسلة.. معتذرة!

خفَّت حدة البكاء.. اعتدلت سناء من رقدتها.. تحدق في حنق إلى كسرات المرآة المتناثرة.. الكسرات تبرق كأنها تغيظها.. مكان المرآة رقعة سوداء.. تمامًا كلون الحياة التي تبدلت لرؤيتها.. أهكذا تخدعنا الحياة.. تبتسم لنا.. تدعونا فنهرع إليها ونرتمي في أحضانها.. وما إن نستشعر الدفء تكشر عن أنيابها، وتغرس فينا أشواكها.. تفتك بنا.. تقذف بنا.. تلفظنا من جنتها.. ونعود لنفتش عن السعادة في داخلنا ومن حولنا.. فنجدها قد ولَّت دون إنذار.. وتصطك بآذاننا ضحكاتها الساخرة..

هكذا، كانت تحدث سناء نفسها.. وما زالت مرارة الفشل عالقة بحلقها.. وآثار الهزيمة بادية في عينيها..

أسندت ذقنها إلى ركبتيها.. حلّقت بخيالها بعيدًا.. يا لهذا اليوم! حقًّا يا له من يوم! قبله كانت مشغولة بالآخرين وبرؤية الحياة.. وفيه أيقظت نظراتهم فكرها.. دقت أبوابًا مغلقة.. وانفرجت قليلًا لتطل في نفسها.. وفيه - أيضًا - وقفت أمام مرآتها.. تستفسرها.. تسترجع النظر إلى محط عيونهم.. تأملتها لأول مرة.. علتها الدهشة.. فلم ترها من قبل.. أو.. أو لم يكن ثمة ما يلفت نظرها.. أو أنها لم ترها بعيونهم.. تدقق النظر.. استهواها المشهد.. اشتغل ذهنها بأمر جديد.. تزنه.. تقلبه في عقلها في شوق ورهبة.. تبرز فكرة.. وإنها لفكرة!

عاشت أيامًا في مشروع فكرتها.. المشروع الهائل.. والفكرة جديدة.. لذيذة.. ملأت كيانها.. ملكت عليها فكرها.. تشوقت مشاعرها.. لم يبق غير التأهب لها، والخوض في لجّتها.. أقبل الليل.. انقضى منه شوط.. قلق يدب في قلبها.. تدعوها أمها للنوم.. رفضت بهزة من رأسها مشيرة إلى كتبها.. ما زالت حالمة.. لم تلحظ نظرة إعجاب الأم.. ولم تسمع دعوتها.. فقط، كانت تعيش في فكرتها..

عمَّ الصمت إلا من فحيح أنفاسها.. سهمت للحظات.. ابتسمت في رهبة.. فالفكرة جديدة ولذيذة.. قامت في تباطؤ لتزداد شوقًا.. أغلقت الفتحات؛ لتكون في مأمن من عيون الليل! اتجهت إلى المرآة.. وقفت على بُعد.. خطت خطوة.. قلبها يدق.. يدق.. الفكرة جديدة ولذيذة.. اتسعت ابتسامتها الخائفة.. خطت.. أصبحت أمام المرآة.. نظرت إلى نفسها.. استدارت وعادت تنظر.. مشهدان مختلفان.. تعيد الكرَّة وتقارن.. أنفاسها تتهدج.. الطبول في

قلبها تدق عالية متتالية.. المكان صمت إلا من أنفاسها.. خلعت ثوبها فحُلَّ شعرها.. أحاط وجهها وجيدها بهالة من الموج الأسود.. وامتد إلى ما بعد ظهرها.. تجردت من قميصها.. نظرت بعيونهم إلى قدها ومواطن الجمال في جسدها.. استمرت تتأمل.. تدقق وتتحقق.. تعيد النظر هنا وهنا.. عيناها مجهران.. تميل وتنظر.. تنثني وتنظر.. تنحني وتتأمل.. ترى.. وترى.. وترى.. الفكرة رائعة! مدهشة! جسدها أشد روعة! وأنفاسها لاهثة.

- إنهم لمعذورون..

لقد فُتنت هي.. فما بال الآخرين.. ما بالهم لو رأوا ما رأت.. ارتدت ملابسها على عجل لتخفي كنوزها.. استرخت.. تستعرض بخيالها قريناتها.. تجردهن من ملابسهن واحدة بعد أخرى.. علتها ابتسامة ساخرة.. واستقر في عينيها مغزًى!

رأى الصبح سناء أخرى.. بعقل يحمل أفكارًا جديدة.. ويجول في خاطرها مشروع تجربة جديدة.. خطيرة.. ارتدت ملابسها بطريقة أخرى.. مثيرة.. خرجت من حجرتها وقد بُدِّلت حالها ليلة الأمس.. ذُهل الأب.. تحمس لينهرها ويقرعها.. لكزته الأم في دلال.. وقرأ في عينيها كلامًا:

- لقد كبرت الصغيرة.. وبدت عروسًا هيفاء.. ولا ضير..

سكت الأب على مضض.. خطت سناء في دنياها الجديدة.. توقفت لتشملها بنظرة.. الأفكار تتضارب والآمال تستطيل وتبرق.. تذكرت ما تخفيه، فرفعت أنفها وصدرها.. بينما تتابع النظرات اللهفى..

- ما بالكم.. لو رأيتم ما أخفيه عن سهام عيونكم.

تتفنن في عرض مفاتنها تبعًا لتزاحم النظرات المحمومة..

- لو يرون جميعًا كنزي!.. فأحطم قلوبهم جميعًا.. وليروا كيف يكون الجمال..

لاحقتها العيون في كل مكان.. وكأنها الأنثى الوحيدة في هذا العالم.. وأنها تعرض دون رابط.. وبلا قيد أو شرط! يا له من صيد! والخبير من يسبق.. والمحظوظ من يأكل الصيد وحده..

كلٌّ يُشهر ما في جعبته ليفوز بذات الحسن.. كلٌّ نسي وعوده أو تناساها.. تبخرت العهود أمام السحر والدلال.. كلٌّ يتمنى رضاها.. ولو ذبح نفسه قربانًا.. وهي تمتلئ سرورًا وغرورًا بلعبتها.. فقد أمست الفكرة لعبة.. ولكن.. ولكنها ملّت لتنزوي الغبطة.. وتفر السعادة رويدًا.. ارتعدت.. عادت تفتش وتسائل نفسها.. آه.. يجب أن تطور اللعبة، وتضيف إليها.. عادت الابتسامة الواثقة.. الساخرة..

تمادت ووعدت.. توافدوا طالبين الوفاء.. ولا وفاء.. لأنها تلعب.. تتمتع باحتراقهم من أجلها.. تتلذذ بلوعتهن حسدًا.. نامت بملء جفونها.. واللهاف ساهرون يتعذبون.. وتعود لتجدد العهود حتى لا يقنطوا.. أسكرها خمر اللعبة.. إنهم دُمى بين أصابعها.. تحركهم أينما وكيفما تشاء وحسب هواها.. بل تستطيع أن تطأهم وتسحقهم جميعًا.. ولكن، يحلو لها لهفتهم وإن طال الزمن.. وأنّى لها أن تقنع أو تشبع! لقد تفوقت على ملكة النحل.. فذكور الملكة يموتون بعد أول لقاء.. وذكورها لا يموتون.. بل تتركهم صرعى كأعجاز نخل خاوية.. وبأقل عطاء..

كلٌّ يتمنى أن يذوق طعم الشهد.. وبائعة الشهد رائحة غادية.. تعرض ولا تبيع إلا اليسير.. بقدر ما يضمن الجذب والاستمرار.. توَّجوها ملكة.. تدابروا وتناحروا.. تناطحوا.. كلٌّ يبغي اعتلاء العرش وحده..

التجربة مبهرة.. تسير وفق إرادتها.. إلا من غمامة في سمائها.. غمامة واحدة واقفة تحجب البريق.. إنه ليس مثلهم.. اختلف عنهم جميعًا.. في البداية، عدَّته يمثل دورًا.. لكنه انبرى وتمادى.. لم ير فيها ما يراه الآخرون.. هكذا تقول عيناه.. لا تلفت نظره.. وكل ما يهبه إليها ابتسامة عابرة.. ولكنها غامضة محيرة! لم يدخل في ظنها أن تصادف مثله.. إنه شريف.. وهو طالب يدرس الفن في معقله بالكلية.. يحب أمل زميلتَه وصديقةَ سناء.. وهي تبادله الحب.. وقد باتا يعدَّان للقاء ما بعده فراق.. إلا الموت.. يلتقي بأمل أمام الجميع.. وأمامها.. ولا يحفل بها.. والكل يعرف.. والكل يبارك.. والكل يرجو النهاية السعيدة.. أغرته بشتى أسباب الإغراء.. ليرد عليها بابتسامته المعهودة.. المؤدبة.. ونظرته الغامضة.. إنه يحرق أعصابها.. يزلزل كيانها، ويسبب لها الإحباط.. فقط، كان يرى فيها أنموذجًا مكتملًا رائعًا لجسد أنثى.. وهذا سر الغموض في نظرته.

يجب أن يلحق بأقرانه في مقبرة فتنتها.. أو تكون أملُ أشدَّ منها فتنة؟!

تسري البرودة في عروقها..

- إنه مخبول مأفون.. أو إنه غرير.. أجل.. فكيف لا ينشغل بها مثلهم.. كيف؟!! ملك فكرها.. وأهملتهم.. طغى عليها الهم والغم.. وطأتهم.. سحقتهم

جميعًا، وهشمت قلوبهم.. وتفرغت له.. نعم تفرغت.. شهرت كل أسلحتها.. قالت بعينيها: إنها رهن إشارته.. وهو ثابت لا يتزحزح.. لقد أهان أنوثتها وجمالها.. كم حقدت على أمل.. وباتت متيمة به.. ولهانة.. لا ترضى بغيره بديلًا.. والمقارنة على طول الخط معقودة في خيالها..

- إنها لا تستحقه.. لا تستأهله.. إنه لي.. لي وحدي.. وهو وحده الذي يستأهل كنزي.. حتمًا سأنتصر عليها.

كل ما تأمله فرصة واحدة.. ولن تدعها تفلت من يدها.. ويأتي الفرج.. إذ تتغيب أمل.. يدق قلبها.. ويعمل فكرها استعدادًا للانقضاض.. المهم أن يأتي.. ارتجّ قلبها..

- أيكونان قد تواعدا على اللقاء؟

الدقائق تمر بطيئة.. غير محتملة.. الشوق واللوعة يجتاحان قلبها.. والحقد على أمل يملأ صدرها.. اللحظات تمضي.. لتكيل اللعنات على شريف هذا المستهتر.. الذي لا يدري أن حسناء الأرض تنتظره غير آبهة بالعيون التي تلتهمها التهامًا!

وتحدث المعجزة.. ويأتي شريف باعتداده بنفسه.. وابتسامته إياها.. كم تعذبها تلك الابتسامة.. ليقينها أنها لأمل.. فتحت بلوزتها قليلًا.. رفعت صدرها.. وابتسمت بملء وجهها.. اعترضته على أنها مصادفة.. حيّاها.. استوقفته.. أخبرته بغياب أمل.. دعته للجلوس منتهزة ارتباكه.. تردد قليلًا ثم جلس.. وضعت ساقًا على الأخرى.. استطاعت بخفتها أن تزيل سحابة الحزن من عينيه.. لقد دنت من الأمل.. والدليل أنه يسترق النظر إلى ملامحها وبعض أعضائها.. اقترب الصيد من الشَّص.. استعرضت..

بضحكة ناعمة مذيلة بآهة.. أو تنهيدة من الأعماق.. بقهقهة يهتز لها نهداها.. انحنت إلى الخلف لينحسر الثوب.. رآها عن كثب.. أجمل من أفروديت التي طالما حلم بها.. ومنّى نفسه أن يرسم صورتها ليخلّد هذا الجمال..

- إنها تفوق الـ «موناليزا» جمالًا وسحرًا.

وقفت على نقطة ضعفه.. أمنيته.. تلوح له باستعدادها لتحقيقها.. وكم تكون سعادته.. ويدعوها إلى مرسمه ولا تمانع.. واتفقا على موعد اللقاء.. والتقت عيناهما وطالت النظرة.. كلٌّ يعبر عما يجيش بصدره من سعادة.. نامت تلك الليلة.. فقد لاح النصر..

في المرسم.. أعدَّ شريف عدته.. وجعل يلف ويدور في جنباته.. وقلق لذيذ يتفشى في قلبه.. تهيأت العروس.. نثرت العطر في مواضع من جسدها.. تأملت مرآتها.. وكأنها تسألها رأيها.. ابتسمت في ثقة.. قفز وجه أمل في المرآة.. تدحرجت الابتسامة إلى زاويتي فمها في تهكم.. تختطف كتابًا بقصد التمويه على والديها.. تراقبها أربع عيون.. اثنتان مشجعتان.. معجبتان.. واثنتان قلقتان.. مشت متشية وفرحة النصر تزحف إلى صدرها.. وحين نظر شريف في ساعة يده.. كانت تطرق بابه.. قفز ليفتح لها.. كم سعدت حين قرأت انبهاره وما اعتراه.. كبتت ابتسامتها..

- إنها أجمل مَن رأيت.. بل أجمل فتيات الدنيا..

استشعرت ما يدور بخلده.. تتبختر مرفوعة الصدر والأنف، فالصيد أوشك على الوقوع.. نظرت هنا وهناك.. دارت فدار معها ثوبها.. تبدو فراشة.. دعاها للجلوس على المقعد الوحيد..

- لقد أصيب عقله.. وبعد قليل، سأمتلك قلبه ومشاعره.. ويصبح لي وحدي.. لن يستطيع مقاومة سحري.. هنا.. أستطيع أن أبلغ مرامي.. وأسحق قلبه..

في خجل.. طلب منها النظر إلى إحدى الزوايا.. ثم ذهب إلى لوحته.. تأمل وضعها.. نقل الحامل.. عاد ينظر إليها..

- لعله سيرسم وجهي!! كيف؟!

دق قلبها ودب.. سألته:

- ماذا سترسم..؟

أجاب ببساطة:

- بورتريه.

- بورتريه؟!

- أجل..

- ألن ترسم صورتي كاملة؟!

- كاملة؟! أوَلا تغضبين؟!

- إلا إذا كنت غير مدرب كفاية..

- بلى.. بلى رسمت كثيرًا.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

- أقصد أنهن.. أنهن كن عرايا..

قالها في دفعة واحدة بينما أخفى وجهه وقلبه يدق.. لم تعلِّق.. رفع وجهه.. كم دهش لابتسامتها، وحين قالت:

- وماذا في ذلك؟.. إلا إذا كنتُ لا أروق لك..

- بالعكس.. أنت رائعة.. أقصد أنموذجًا رائعًا.. فقط، كنت أخشى أن أسبب لك الحرج.

ضحكت.. قامت لتتجرد من ملابسها حين شغل شريف نفسه بتغيير اللوحة إلى أخرى أكبر مساحة.. لم يستطع أن يتحكم في يده المرتعشة.. فوجئ بها عارية.. لم يستطع أن يبعد بصره.. طالت بينهما نظرة.. ابتعدت.. ها هو جسدها يتفجر أنوثة وإثارة.. جلست..

- إنها تفوق كل آلهة الجمال.. إنني أسعد حظًّا من دافنشي..

نبهته من شروده قائلة:

- كيف أقف؟

هز شريف رأسه.. فتح عينيه على حلمه الذي بدا حقيقة ماثلة.. متجسدة.. دنا منها.. مدَّ يده ليصلح من وقفتها.. لمست يده جسدها برغمه.. ابتسمت في خبث..

- لا بد أنه يقصد ذلك.. أو أنه يبغي إثارتها.. أو يكون جس نبض ستعقبه محاولات أخرى.. في الغد، سيتأبط ذراعي.. سيعقد الذهول دماء أمل.. ستفقد رشدها.. ولا بد أن تقع مغشيًّا عليها من هول الصدمة.. وستفيق لتجد أملها ذبيحًا.. مبعثر الأشلاء.. انبرى الفنان يرسم.. الروائح مختلطة.. رائحة الأنوثة طاغية.. ظالمة.. يقاوم ويقاوم.. يواصل بحيوية منقطعة النظير.. سألها أن تستريح.. قامت تتلوى.. ترسل تنهداتها وكهربيتها.. فاجأته سائلة:

- ألم ترسم صورة لأمل.. إنني لا أرى صورتها في مرسمك..

اندفع قائلًا:

- ولِمَ؟

شعر بأنه قد خدش حياءها.. فأضاف في ذكاء:

- إنها لا تملك مثل هذا الجسد.. وإلا لما حلمت برسم صورتك..

قالت لنفسها في لوعة:

- ليتني أعلم.. ليتني.. ولكن..

دنت من اللوحة.. لفحته بأنفاسها.. وقفت في مقابلته.. وضعت راحتها على كتفه.. ارتعشت كل أطرافه.. تلامس جزء من جسديهما فسرت النيران في دمه.. كاد يلمس ردفها.. أو.. صورة أمل تقتحم خياله.. تراجعت يده.. أبعدها برفق.. بصوت متهدج طلب منها أن تقف.. وقفت فاسحة بين ساقيها.. أشار أن تضمها..

انبرى بنشاط وسرعة وكأنه أصرَّ على أن يطرد آثار الفتنة.. احتواه ملاك الفن الأبيض.. تلاشى اللون الأحمر.. زالت الحمَّى.. نسي كل شيء إلا إحساسه بما يبدع.. يترجم صرخات الجسد.. وهي.. تدغدغها نظراته وانفعالاته.. وانشغاله كله بجسدها..

- عما قريب سيصبح أسيري.. وحبيبي.

جعلت تتفرس ملامحه.. وبالذات شفتاه المزمومتان.. كم تحنُّ إلى عناقه وقبلاته.

- استريحي قليلًا..

همست متسائلة:

- أيبقى كثير؟..

وأضافت في نفسها:

- متى تحتويك أحضاني.. متى تخضع.. متى؟!!

جعلت تتجول.. تتثنى.. تهتز أعضاؤها.. ترفع بعضها.. تتلوى.. كانت تبغي اكتساح مقاومته.. ما زال متماسكًا.. يكبح جماح رغبته، ويقبض على زمام أعصابه.. والنداءات تصم أذنيه.. ويستطيع أن ينتزع جملته..

- لتعودي .. فما بقي إلا القليل..

تلمست اللوعة في نبرات صوته.. بعد قليل، ستنتصر سيجثو أمامها.. فهو الذي اعترف.. ولكن، ليس قبل أن يخلدني في لوحته.. هكذا وعد..

استمر طويلًا هذه المرة.. كأنه نسيها.. ترفقت به.. تحملت حتى ألقى بفرشاته وتنفس بعمق.. ارتعشت شفتاها.. أغبطت نفسها بالنجاح الوشيك.. تتأمل يديه القويتين وصدره العريض المفترش بالشعر.. عوده الممشوق وصوته الخشن.. خالتْه يقول لها:

- أحببتك يا معبودتي.

طالت وقفته أمام لوحته.. لم يبق إلا اللمسات الأخيرة.. شعرت بالسأم.. سيضاف اسمها إلى قائمة الخالدين.. الصراع يجتاح رأسها.. تيار كهربي يسري في أعضائها.. تقدمت نحوه.. تفحصت ملامحه.. ليس بها ما يطمئن..! نظرت إليه في ذلة وضراعة.. وقالت بعينيها:

- أستحلفك أن ترحمني..

لم يستمع إلى دعوتها.. بل وقف يبتسم في بلاهة.. حتى هذه الابتسامة ليست لها.. ثارت وفارت.. اندفعت إليه.. حاولت أن تضمه.. أبعدها.. تتشبث به ويقاوم.. تجتذبه إليها ويعاند.. ويصمد.. في الأفق، وجه أملَ بريئًا وديعًا كعهده.. استطاع أن يفلت من براثنها.. بدت القطة نمرة تنوي افتراسه.. لقد خذل أنوثتها.. هدأت أنفاسها نوعًا.. ما زال يضحك في بلاهة وبلادة.. يغشى عينيها انكسار وقنوط.. تناولت من يده ملابسها.. الإهانة تعتصرها.. وبدا كنزها من الطين العفن.. فقد طعن كبرياءها.. ولم ينصت إلى زعقات جسدها.. عاودها بصيص الأمل.. سألته بينما تتداعى:

- هل سترسم لي صورة أخرى..؟

صمت طويلًا.. ثم عاد يهز رأسه نافيًا.. ونظر إلى صورتها ولسان حاله يقول:

- تكفي واحدة..

الطعنة قاتلة.. تمنت لو خرَّت صريعة.. غادرت المرسم.. لم تسمع كلمة توديع.. فقط، زلزلتها ابتسامة أمل الهادئة.. الواثقة.. أغلقت باب الجنة.. ومشت تجرُّ خيبتها..

في الصباح، التقت بهما متآبطين.. وقفت أمامهما منكسة الرأس.. حيَّاها كعادته وناولها كتابها الذي نسيته بالأمس.. وأثنى عليها على مسمع أمل.. لم تطق فأسرعت بالعودة إلى منزلها.. دخلت حجرتها.. أغلقت الباب في عنف بين دهشة الأبوين.. زاد من دهشتهما.. صوت تهشُّم المرآة.. وصوت بكاء.

* * *